الفصل الثاني

الفنون الزخرفية

المبحث الاول

التصوير العربي في العصر العباسي

موقف الاسلام من التصوير

لقد اختلفت اراء الاختصاصيين المحدثين في موقف الاسلام من التصوير فمنهم من يرى ان الاسلام لم يحرم التصوير اطلاقا ومنهم من يعتقد بـان التصوير كان محرما او على الاقل مكروها في فجر الاسلام وماتلته من عصور اسلامية متعاقبـة .

ومهما يكن من امر فانه ليس في القرآن الكريم مايمكن ان نستشف منه كراهية او تحريم . غير ان هناك احاديث تنسب الى رسول الله (ص) يستشف منها مثل ذلك التحريم . ومن اهم تلك الاحاديث « ان اشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » . و « لاتدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا تصاوير . » غير ان الفقهاء قد اختلفوا منذ فجر الاسلام في تفسير تلك الاحاديث وتحديد المقصود بالتحريم . ومهما يكن من امر فقد كان تحريم التصوير عند بعض فقهاء القرن الرابع الهجري (العاشـر الميلادي) ينصرف الى مـن « صور الله تصوير الاجسام » ، أي من صنع تماثيل الغرض منها عبادتها . فمن صنع غير ذلك « لم يستحق الغضب من الله » . ومن جملة من قال ذلـك من الفقهاء ابو علي الفارسي النحوي المتوفى في سنة ٣٧٧ هجريه (٩٨٧م)[1] .

(١) احمد تيمور ، التصوير عند العرب ، التعليقات ، ص ٣-٤ .

Scanned by CamScanner

ومع ذلك فان كثيرا من فقهاء العصر العباسي قد رأو ان التحريم يقتصر الى جانب كبير من جوانب التصوير • فقد كان من الامور المسلم بها بشكل عام عند الفقهاء بانه من الجائز للمصور ان يصور رسوم الشجر والزهور والنقوش النباتية او الهندسية دون تحرج • غير انه ليس من الجواز اطلاقا ان يصور كائنات حية كالرسوم والتماثيل الادمية والحيوانية • وان صانع تلك الرسوم يعاقب عقابا شديدا يوم القيامة فعمله هذا من الكبائر لانه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد • اما بالنسبة للمستفيد من تلك الرسوم والتماثيل فان كان قد علقه على الحائط او كان ثوبا ملبوسا او عمامة ونحو ذلك مما لايعد مستهنا فحرام • وان كن في بساط يداس ومخدة ووسادة ونحوها مما يمتهن فليس حرام •

واذا صحت ان الكراهية هذه ترجع الى عصر النبي عليه السلام فلاشك أسبابها كان الفزع من الوثنية وعبادة الاصنام والخوف من الرجوع الى ما كان عليه معظم العرب في الجاهلية • ومع ذلك فان فريقا كبيرا من المستشرقين وعلماء الفنون والاثار الاسلامية هذه الايام يرون ان النبي لم يكره التصوير ولم ينه عنه ، وان هذه الكراهية نشأت بين الفقهاء في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ، وان الاحاديث المنسوبة الى النبي عليه السلام بهذا الخصوص موضوعة •

وسواء صح هذا الرأي او ذاك فان لتحريم تصوير الكائنات الحية من قبل غالبية الفقهاء المسلمين في العصر العباسي كان له نتائج واضحة لا يمكن لاحد ان يغفلها• فعلى الرغم من ان تلك الكراهية او التحريم فانها لم تقض على هذا الفن قضاء تاما حيث يشهد تاريخ الفنون الاسلاميةبان الفنانين المسلمين كانوا في كثير من الاحيان لا يكترثون بتلك الكراهية او ذلك التحريم ، فان موقف الفقهاء العام قد ادى الى ان الاسلام لم يتخذ الفن التشكيلي عنصرا من عناصر الحياة الدينية ولم تشمله برعاية • كما ان تحريم الرسوم الادمية وغيرها من الكائنات الحية حال دون استخدام التصوير في العمائر الدينية كالمساجد والاضرحة والمدارس وغيرها •

Scanned by CamScanner

ولا شك ايضا ان موقف الفقهاء هذا قد ادى الى حد كبير الى جمود التصوير ووقوفه عن التطور . فلم يعترف الفنانون المسلمون الا في النادر بتصوير اللوحات الفنية المستقلة الكبيرة على النحو الذي عرفته اوربا منذ القرن الرابع عشر الميلادي . فالتصوير الذي عرف في العالم الاسلامي كان وقفا بشكل عام على توضيح الكتب وتزويقها سواء الكتب العلمية ام كتب التاريخ او الادب ودواوين الشعر .

ومن نتائج ذلك ايضا قلة المنحوتات وندرة التماثيل المستقلة . كما ادت تلك الكراهية الى اتقان الزخارف البعيدة عن تجسيم الكائنات الحية فقد تفوق العرب والمسلمون الى درجة عظيمة جدا في الزخارف النباتية والهندسية حيث لم تستطع امة من الامم مجاراتهم في ذلك .

واذا انتقلنا الى دراسة ما وصل الينا من تصاوير أسلامية نجد اولا انه لم تصل الينا رسوم ترجع الى عصر الخلفاء الراشدين ولا شك ان السبب في ذلك يرجع الى امرين : اولهما أن الطابع العام للعرب والمسلمين في ذلك العصر التقشف والبعد عن الترف وزينة الحياة الدنيا . ثانيهما هو ان العرب كانوا منصرفين معظم تلك الحقبة الزمنية الى الجهاد في سبيل الله لنشر راية الاسلام واعلاء شأنه .

وفي الفترة التي تولى فيها كرسي الخلافة خلفاء بني امية نجد أن العرب في الحقبة الاولى منها كانوا مشغولين في تصفية المنازعات والخصومات الداخلية اضافة الى الفتوحات العظيمة التي حققها العرب والتي منها فتح شمال افريقة والاندلس واجزاء كبيرة من بلاد الشرق الاقصى والهند والتي توقفت بشكل تام تقريبا بعد وفاة الخليفة الوليد بن عبدالملك في سنة ٩٦ هجرية (٧١٥ م).

ان اقدم ما وصلنا من تصوير في العصر الاموي هي رسوم جدارية تزين بعض القصور ودور الاستراحة شيدت على طرف البادية الغربية ، والتي

Scanned by CamScanner

من اهمها رسوم وجدت تزين قصرا صغيرا يعرف اليوم باسم (قصير عمره) والتي جئنا على دراستها في فصل سابق .

كما ان الحفائر الاثرية في العراق لم تكشف شيئا عن التصوير في العصر العباسي يسبق في الزمن تأسيس مدينة سامراء . ولا شك ان السبب في ذلك يعود بالدرجة الاولى الى عدم اجراء حفائر اثرية منتظمة في حاضرة الدولة العباسية بغداد . اللهم باستثناء تلك الحفائر القليلة التي قام بها قسم الاثار في كلية الاداب بجامعة بغداد في محاولة لتحديد موقع مدينة المنصور في الجانب الغربي لنهر دجلة من بغداد الحالية . وهي حفائر متقطعة تمت في شتاء سنة ١٩٧١ . ومن المأمول ان تنال مدينة بغداد العظيمة نصيبها من الحفائر الاثرية المنتظمة في الوقت المناسب .

ونتيجة لذلك فيمكن ان نعتبر ان الرسوم الجدارية التي اكتشفتها البعثة الاثارية الالمانية في اطلال سامراء بين سنتي ١٩١٠ و ١٩١٤ والتي سوف نأتي على دراستها في فصل قابل اهم المصورات العباسية التي تسبق نهاية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)[1] . وكل ما عدا ذلك لا يزيد على نصوص أدبية وتأريخية وشعر مبعثر في كتب التاريخ والادب تشير الى رسومات ونحت كان قد مارسها فنانو العرب في العصر العباسي الاول .

وفي مصر فان الرسوم التي وصلتنا من العصر الفاطمي قليلة جدا ونادرة من اهمها النقوش المرسومة على الجص والتي وجدت على جدران حمام فاطمي كشفت الحفائر الاثرية عنه في سنة ١٩٣٢ . واهم الاجزاء الباقية منها رسم رجل جالس عليه عمامة وحول رأسه هالة وفي يده اليمنى كأس . ويحيط بالرسم اطار على شكل قوس مدبب . ويبدو من دراسة الرسوم الجدارية المكتشفة في مصر والتي ترجع الى العصر الفاطمي أن الفنانين ان لم يكونوا عراقيين فهم متأثرون بلا شك باساليب الرسم والنقش التي عرفت في العراق خاصة من عصر سامراء .

---

(١) انظر :

Herzfeld, Die Malarein von Samarra,

Scanned by CamScanner

نحن نعلم ان العرب قد زوقت الكثير من المخطوطات بالرسوم والنقوش منذ العصر العباسي المبكر • فقد كتب لنا ابن المقفع في مقدمة ترجمته لكتاب (كليلة ودمنه) ما يبين لنا بشكل لا يقبل الجدل ان الترجمة مثل الكتاب الاصلي المترجم عنه كان مزوقا بالتصاوير• فقد كتب ابن المقفع في تلك المقدمة في باب عرض الكتاب : « وينبغي للناظر في هذا الكتاب ومقتنيه ان يعلم انه ينقسم الى ازبعة اقسام احدها •••••• والثاني اظهار خيالات الحيوانات بصنوف الالوان والاصباغ ليكون انسا لقلوب الملوك ويكون حرصهم عليه اشد من النزهة في تلك الصور» • كما كتب ايضا : « وقد ينبغي للناظر في كتابنا هذا ان لا يجعل غايته التصفح لتزاويقه بل ليشرف على ما تضمن من الامثال »[1] •

ولكن مما يؤسف له ان لاتصلنا اية مخطوطات مزوقة من العراق تسبق القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) والتي سوف تتطرق اليها عندما تتطرق الى المدرسة العربية في التصوير •

غير انه عثر في مصر في اقليم الفيوم على صور صغيرة على رق كانت على الأغلب اجزاء من بعض المخطوطات ترجع الى القرون الاولى من العصر الاسلامي في مصر • وان من اقدم هذه الصور ورقة من مخطوط على احدوجهيها بضعة اسطر من الكتابة العربية يليها رسم شجرة بالالوان البراقة • على جانب الشجرة رسم بناء مدرج • والراجح ان هذه الورقة هي جزء من مخطوط يرجع الى القرن الثالث او الرابع الهجري (٩ــ ١٠ م) كما يظهر من اسلوب الخط على الورقة • ومن تلك الرسوم ايضا ورقة عليها رسم رجل ذي لحية طويلة • وعلى ورقة اخرى رسم فارس ذي لحية وقلنسوه مخروطية الشكل يحمل في يده ترساً وفي الوجه الاخر « وما توفيقي الا بالله عليه توكلت » • ثم « الحمد لله شكرا • الحمد لله وحده (مماصو) وابو تميم

(1) ابن المقفع ، كليلة ودمنه ، ص٧٠ •

Scanned by CamScanner

حيث ا »(٣) . ولاشك ان تلك الورقتين المصورتين ترجعان الى نفس الفتر
الزمنية التي ترجع اليها الورقة المصورة الاولى .

ويبدو من دراسة تلك الاوراق المبعثرة المصورة ان الالوان التي كان
سائدة في العصور الاسلامية الاولى في مصر في تصاوير المخطوطات هو اللو
الاحمر ثم الاصفر والاخضر .

تعتبر مدرسة بغداد في التصوير أول مدرسة معروفة لنا في تزوي
المخطوطات رغم ان اقدم المخطوطات المزوقة بالرسومات التي ترجع الى هذ
المدرسة لا تسبق اواخر القرن السادس واوائل القرن السابع الهجري (٢
ـ١٣ م) . والسبب في ذلك يعود الى انه لم تصل الينا مخطوطات مزوق
ترجع الى العصر الاموي او العصر العباسي الاول . رغم اننا نعلم ان الكثي
من المخطوطات كانت تزوق بالرسوم في ذلك العصر ، فالمراجع التاريخي
تذكر بان الفنانين العرب المسلمين كانوا يزينون المخطوطات بالصور من
القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) على الاقل كما سبق ان ذكرنا .

ان للمدرسة العربية في التصوير اسماء اخرى يجدها طالب الآثا
الاسلامية في المصادر المختلفة التي تطرقت الى هذا النوع من الدراسة منها
(المدرسة العراقية) و (المدرسة العباسية) و (والمدرسة السلجوقية) .
ولكل تسمية من هذه التسميات اسبابها . لا نرى مايدعو الى التطرق اليه
في هذا الكتاب . والواقع ان اطلاق اسم مدرسة بغداد على هذه المدرسة
يعود بالدرجة الاولى الى أنها من قبيل التغليب وأطلاق الجزء على الكل
لان مدينة بغداد كانت حاضرة الخلافة العباسية ، ولان معظم ما انتجته هذه
المدرسة من التصاوير الرائعة كانت في العراق وثمرة تعضيد الخلفاء والامراء
العباسيين ثم ان الغالبية العظمى من المخطوطات المزوقة برسوم هذه المدرسة
هي مخطوطات عربية .

---

(٣) Grohmann and Arnold, the Islamic Book p. 4

Scanned by CamScanner

ازدهرت مدرسة بغداد في التصوير، كما سبق وذكرنا منذ نهاية القرن السادس ومطلع القرن السابع الهجري، غير أن ابدع انتاجها كان بلا ادنى ريب في النصف الاول من القرن السابع •

ان اقدم مخطوطات مدرسة بغداد المزوقة هي بعض ماترجم والف في الطب والعلوم والحيل الميكانيكية ، فضلا عن طائفة قليلة من كتب الادب مثل كليلة ودمنه ومقامات الحريري وكتاب الاغاني لابي فرج الاصفهاني •

ان من اهم الكتب العلمية التي ذاع تزويق مخطوطاتها في مدرسة بغداد العربية كتاب في البيطرة هو مختصر رسالة لاحمد بن حسن بن الاحنف الذي استنسخ وزوق في بغداد على يد علي بن حسن بن هبة الله سنة ٦٠٥هـ (١٢٢٣م)[1] • ومعظم موضوعات تصاوير هذه المخطوطة رسوم للخيل وحدها او مع سواسها وهم يركبونها أو يروضونها أو يعنون بها (شكل٥٧) •

ومن الكتب العلمية الاخرى التي اقبل على تزويقها كتاب الترياق لجالينوس • والترجمة العربية لكتاب الحشائش او خواص العقاقير لديسقوريدس • وكتاب الحيل الميكانيكية اسمه « الحيل الجامع بين العلم والعمل » لابن الرزاز الجزري الف في اواخر القرن السادس الهجري (١٢م) تكلم فيه عن الالات الضاغطة والرافعة والناقلة والمتحركة •

اما المخطوطات الادبية التي اقبل على تزويقها رسامو مدرسة بغداد العربية فكثيرة اهمها (مقامات الحريري) • والمعروف انهذه المقامات مجموعة من القصص كتبها في الربع الاول من القرن السادس الهجري اديب عراقي مشهور في البصرة هو القاسم بن علي الحريري • وقد اشتهرت في العالم العربي في العصر العباسي الاخير لما فيها من غزارة المادة ودقة الملاحظة والخيال الواسع الفياض • ويروي الحريري هذه القصص باسم (الحارث بن همام) يسرد فيها نوادر بطل فصيح اللسان حاضر البديهة واسع الحيلة هو (ابو زيد السروجي) •

---

(١) زكي محمد حسن : مدرسة بغداد في التصوير الاسلامي ، مجلة سومر ص ٢٤ . الجزء الاول . المجلد الحادي عشر . ١٩٥٥

Scanned by CamScanner

لقد وصل الينا عدد قليل من مخطوطات المقامات المصورة ، أقدمها عهدا مخطوطة محفوظة في المكتبة الوطنية في باريس مؤرخة من سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٧م) كتبها وزوق تصاويرها يحيى بن محمود بن يحيى الواسطي • وتعد تصاوير هذه المخطوطة ابدع ماوصل الينا من تصاوير مدرسة بغداد ، اذ انها تمتاز بقوة التعبير وبهجة الرسم وقوته اضافة الى التناسق التام في الالوان والخطوط وقد استطاع الواسطي في رسومه هذه ان يكون واقعيا الى ابعد حدود الواقعية وذلك بان جعلها سجلا حافلا بالمشاهد المختلفة من الحياة اليومية في العصر العباسي الاخير (شكل ٥٨) • ويشهد له النقاد العالمون اليوم بانه فنان من الطراز الاول وان رسوماته لاتقل في الاهمية من الناحية الفنية والجمالية عن رسوم كبار الرسامين العالميين المعروفين • وحسبنا انه وفق في كثير من تصاويره الى التعبير عن الحالات النفسية والى التمييز بين صور الاشخاص فيها[1] •

ومن الكتب الادبية الاخرى التي عني بتزويق مخطوطاتها مصورو مدرسة بغداد كتاب (كليلة ودمنة) • والمعروف انه مجموعة من القصص الهندية كتبت في نحو القرن الثالث الميلادي ثم ترجمت من السنسكريتية الى اللغة الفهلوية الايرانية في القرن السادس الميلادي • وقد نقل ابن المقفع هذه الترجمة الى اللغة العربية في النصف الاول من القرن الثامن الميلادي •

ان من اهم خصائص مدرسة بغداد العربية في التصوير انه يغلب عليها الرسوم الادمية التي تملؤها حياة وتكسبها قوة • غير ان الاسلوب المتبع في رسم هذه الاشكال هو الاسلوب الشرقي القديم الذي لايعني برسم اجزاء الجسم الانساني رسما دقيقا فهي لاتولي تشريح الجسم عناية كبيرة ولاتحترم

(١) نفس المصدر ، ص٣٠ .

Scanned by CamScanner

النسب في تصوير اعضاء الجسم • فهي في ذلك تختلف عن التصوير الاوربي منذ عصر النهضة حيث التزم الرسامون بقواعد التشريح• كما لم يعني الرسامون بقواعد المنظور • فكان المصور يفرض ان المشاهد يستطيع ان يرى المشهد كله من دون ان يحجب قسم منه اخر فيظهر نتيجة لذلك وليس للصورة الا بعد ان أثنان : طول وعرض • اما العمق فان رسومات مدرسة بغداد لم تعرفه •

ومن اساليب مدرسة بغداد ان المصور كان يجمع احيانا بين مشهدين من مشاهد القصة في تصوير واحد ، وان الشخص الرئيس في الصورة يرسم بحجم اكبر من بقية الاشخاص ، وهو امر معروف في الفنون القديمة في العراق ومصر وايران وغيرها من الاقاليم • وربما كان اقدم مثال على ذلك ما نلاحظه في مسلة (نارام سن) الاكدية التي ترجع الى الالف الثالث قبل الميلاد •

كمايلاحظ ايضا في رسوم مدرسة بغداد امثلة كثيرة في التعبير بالعينين واستعمال الاصابع للاشارات والاستعانة بها في الكلام • والواقع ان هذه المزة قد توارثتها فيما بعد المدارس الاسلامية في التصوير التي تلت هذه المدرسة •

وامتازت مدرسة بغداد كذلك بالتوفيق في تصوير الجموع البشرية الى ابعد الحدود فان تصاويرها تضم في بعض الاحيان مواقف صاخبة وجموعا متراصة من البشر (شكل ٥٩) •

ومن الاساليب المتبعة أيضا رسم هالة حول رؤوس الاشخاص ، والهالة هنا لا تعني القدسيّة مطلقا كما كان عليه الامر في الفن البيزنطي وانما لابراز رؤوس الاشخاص فقط وتمييزها عما يحيط بها من خلفيات •

وتتميز ملابس الاشخاص في هذه المدرسة بالميل الى الافراط في زخرفتها وتحليتها بالرسوم الهندسية وهي فضفاضة بشكل عام وذات

Scanned by CamScanner

اكمام واسعة والتي يبدو بانها السنة التي كانت متبعة في اللباس في العصر العباسي الاخير (شكل ٦٠) .

وبالنسبة لرسوم النبات يلاحظ ان المصور ـ في المخطوطات الادبية وليس العلمية ـ كان يهدف الى الزخرفة قبل كل شيء فلا يتردد في تحوير النبات تحويرا كبيرا ليجنح به نحو التبسيط . كذلك بالنسبة الى رسوم العمائر فقد كان المصور هنا ايضا ميالا الى التحوير والاختصار ، فقد رسمت العمائر بشكل عام في اسلوب تخطيطي واصطلاحي .

لقد كان الميل شديدا عند مصوري مدرسة بغداد الى الالوان البراقة الحادة، ومن اكثر الالوان التي استخدموها هي اللون الذهبي خاصة في رسوم الخلفيات ، واللون الاحمر والازرق والاخضر والاسود .

Scanned by CamScanner